مداخل جديدة في قراءة أسماء الأمكنة الفلسطينية

عامر دهامشة
في حضرة الأسماء: قراءة نقدية وأدبية في أسماء البلدات والمعالم الطبيعية العربية-الفلسطينية حتى سنة 1948 وما بعدها
ترجمة علاء حليحل
حيفا: مدى الكرمل—المركز العربي للدراسات الاجتماعية التطبيقية، 2025
269 صفحة (بالعربية)

قراءة: فيروز سالم، فلسطين

مدخل

إن قضية التسمية في السياق الفلسطيني تُعَدُّ من أكثر القضايا تعقيداً لما تمثِّله من ديناميات اجتماعية وجغرافية وسياسية وتاريخية تتجاوز حدود الحقل اللغوي. فالأسماء في كتاب عامر دهامشة، تتجاوز كونها كلمات دالَّة على بلدة أو جبل أو وادٍ، إذ إنها تروي علاقات اجتماعية واقتصادية وجندرية وسياسية تشكَّلت عبر التاريخ وتشابكت مع المشروع الاستعماري الاستيطاني في فلسطين. وهنا تكمن أهمية الكتاب، حيث يضع "الأسماء" في قلب سؤال أوسع حول الهوية والزمان والمكان الفلسطيني في مواجهة مشروع استيطاني يسعى إلى محو السردية الفلسطينية.

إن الكتاب، الصادر أصلاً بالعبرية في العام 2017 عن أطروحة دكتوراه قبل ترجمته إلى الإنجليزية ثم إلى العربية، يركِّز ميدانياً على منطقة الجليل الغربي. يبحث فيه المؤلف في أسماء البلدات والمعالم الطبيعية في منطقة الجليل الغربي، وذلك من خلال مادة إثنوغرافية تعتمد على روايات فئات اجتماعية مختلفة في فلسطين تشمل المسلمين والمسيحيين والدروز والبدو. وهي روايات تنسج مجتمعة السردية الفلسطينية لأسماء الأماكن في مقابل مشروع محو الأسماء الاستيطاني الصهيوني، والذي يمثِّل جزءاً من الصراع على هوية المكان.

بنية الكتاب وفصوله

يتكوَّن الكتاب من خمسة فصول، بالإضافة إلى تقديمين ومدخل وخاتمة. يوضح المدخل الأسس النظرية للبحث والإشكاليات النظرية والمفاهيمية حول العلاقة بين الاسم والحيِّز والتاريخ الاجتماعي، بما في ذلك منهجية تفكيك وحدة مصطلح "الأسماء الجغرافية" والتمييز بين أسماء البلدات والمعالم الطبيعية باعتبارهما "جانرين [نوعين كتابيين]" متمايزين بناء على معطيات العمل الميداني ودلالاتها.

في الفصل الأول، يقدم دهامشة عرضاً نقدياً للأدبيات السابقة الفلسطينية و"الإسرائيلية" على حدٍّ السواء، إذ ينتقد اختزال الأسماء في كونها معطيات جغرافية أو لغوية جاهزة، ويقترح تصنيفاً آخر لمصادر الأسماء يستند إلى التاريخ الاجتماعي للفلسطينيين وعلاقتهم بالحيِّز. وهو ما يستدعي الانتقال إلى دراسة الأسماء من الأسفل بالاعتماد على روايات الفلسطينيين ولغتهم وذاكرتهم، حيث غابت الدراسات الميدانية المنطلقة من لغة السكان الأصلانيين، ولا سيَّما الفلاحين، لتوثيق الأسماء كما ينطقونها وتتبُّع مصادرها وموروثاتها في ذاكرتهم، مع إغفال تنوُّع اللهجات داخل المجتمع الفلسطيني. وهذه فجوة حاول الكتاب سدَّها من خلال الاعتماد في تحليله على عدد كبير من المصادر الإثنوغرافية والتي بلغ عددها 379 قصة و289 اسماً من 175 شخصاً (126 مسلماً، و25 درزياً، و24 مسيحياً).

أما الفصل الثاني، فيركز على أسماء البلدات التي يتجلَّى فيها تخليد أسماء المقاتلين والزعامات والأحداث، بالإضافة إلى العلاقة مع اللغة العبرية والآثار اليونانية والصليبية والبيزنطية في بعض الحالات. ترتبط أسماء الشخصيات بأسماء القرى بوصفها تعبيرات إثنوغرافية تخصُّ التاريخ المجتمعي والفولكلور المحلي، فيما يكشف تحليل الأسس الإثنوغرافية للأسماء عن الأعراف والتطلُّعات والمخاوف التي تشكِّل المجتمع الفلسطيني في خصوصيَّته المحلية بما يتيح التمييز بين ما هو خاص بالمجتمع الفلسطيني وما هو عام في الذاكرة العربية الأوسع. وفي المقابل، تكشف عمليات إعادة تسمية الأماكن عن مسارات تاريخية وسياسية وعلاقات قوة غير متكافئة بين مجموعات استعمارية مهيمنة وأخرى أضعف. وفي هذا السياق، يتعامل الكتاب مع الاستعارة اللغوية والتسمية بوصفهما عمليتين تتأثران بميزان القوى السياسية، بما يسهم في فهم العلاقة بين الأسماء والنزاعات الإثنية في سياق التقاء متواصل بين الأغلبية اليهودية والأقلية الفلسطينية في "إسرائيل"، دون اختزال هذا التفاعل في ثنائيات متعارضة وجامدة.

وفي الفصل الثالث، يناقش دهامشة سردية أسماء المعالم الطبيعية من خلال العلاقة مع حضور المرأة الفلسطينية، وعادات الزواج ومسيرات العرائس، والأسماء الاستعارية التي تصف المياه والتضاريس والموارد الزراعية، وأثر الأرواح والعفاريت والحيوانات، والموروث المسيحي. كما تعكس الأسماء الهوَّة بين الماضي الفلسطيني الأصيل والحاضر "الإسرائيلي" المؤلم. فالأسماء تعكس معرفة السكان بالتضاريس، والمياه، والنباتات، والحيوانات، والزراعة، ومسارات الحركة والعمل في الأرض. كما يكشف الفصل عن حضور الاستعارة في تسمية المكان، ولا سيَّما استعارات الجسد والجندر، حيث تُفهم أجزاء من المشهد الطبيعي من خلال أعضاء جسم الإنسان، كما ترتبط الأرض في بعض التسميات بصورة المرأة وخصوبتها واستصلاحها.

ولبحث "التمايز بين أسماء البلدات وأسماء المعالم الطبيعية: إعادة الإنتاج والمكانة الاجتماعية والجندرية وتبجيل القرية"، يكشف المؤلف في الفصل الرابع أن المقارنة ليست لغوية فقط، بل اجتماعية وطبقية وجندرية. يستعين المؤلف بالأدوات الفكرية لكل من أنطونيو غرامشي وديفيد هارفي وهنري لوفيفر وميشيل دو سارتو في قراءة الحيِّز بوصفه نتاج علاقات قوى لا معطى محايداً. فالاسم، كما يرى دهامشة، لا يعكس المكان فحسب، بل يمكنه أن يرفع مكانة قرية، أو يمجِّد جماعة، أو يهمِّش أخرى، أو يعيد إنتاج التمييزات الجندرية والطبقية داخل المجتمع.

وفي المحصلة، يجمع دهامشة، في الفصل الخامس، الخيوط التي طورها في الفصول السابقة ليبحث في نشأة الأسماء العربية—الفلسطينية وتحوُّلها إلى موضوع للصراع السياسي على المكان. يروي الفصل كيف تحولت التجربة المعيشة إلى كلمات، ثم إلى أسماء، ثم إلى ذاكرة جمعية. ويبحث الفصل عن السبب الذي دفع السكان إلى استخدام تجسيد لغوي تفصيلي للأماكن؟ ويستنتج أن الوفرة في الأسماء المعطاة للمعالم الطبيعية وأقسام الأرض المختلفة، تشير إلى الصلة الدائمة بين المجتمع الفلسطيني وبيئته. وهو ما يعكس إلماماً خاصاً بالأمكنة وبنهج الحياة، الأمر الذي يختلف عن الخرائط الممأسسة القادمة من أعلى. كما يتتبع الفصل مسار تهويد أسماء الأماكن واغترابها عن هويتها الأصلانية، وبذلك تكون العبرنة أكثر من مجرد استبدال كلمة عربية بأخرى عبرية. ذلك أن الأسماء الفلسطينية قد تشكَّلت من ممارسة السكان للمكان ومعرفتهم به، ما يجعل إعادة تسميته تدخل ضمن عملية أوسع لإعادة إنتاج جغرافيته وذاكرته وهويته السياسية.

المنهجية والبحث في الحياة اليومية: ديناميات العلاقات الاجتماعية والإحساس بالمكان

تكمن الإضافة المنهجية المميزة للكتاب في رفض التعامل مع مصطلح "الأسماء الجغرافية" (26) باعتباره وحدة متجانسة. ويطرح الكتاب تفكيك المصطلح ليبحث في العلاقات المعيشية التي تشكِّل "الإحساس بالمكان" وما تمثِّله من صلات قائمة بين السكان وبيئتهم المادية الملموسة. ومن هذا المنطلق، يوجِّه دهامشة نقده للخطاب الاستشراقي "الإسرائيلي" الوضعي الذي يعيد إنتاج علاقات القوة القومية بلغة ظاهرها "الحياد" (46-47). ويوسِّع دهامشة النقد ليشمل بعض الأدبيات الفلسطينية المبكِّرة، مثل كتاب **بلادنا فلسطين** لمصطفى الدباغ في الستينيات من القرن الماضي وأعمال خمّار قسطنطين التي تلتها في الثمانينيات، حيث سعت هذه الأدبيات في ردِّها على الرواية الصهيونية أن تثبت أن الأسماء عربية محضة، وهو ما يراه دهامشة استنساخاً لبنية الخطاب الصهيوني القائم على الثنائية بدلاً من تجاوزها. ويأتي طرح دهامشة لمنهج قراءة الأسماء من أسفل توثيقاً للأسماء كما وردت في قصص الفلاحين ولغتهم التي شكَّلت مادة بحثية أولية غنية ونادرة.

يركِّز الكتاب على البعد الجندري للأسماء، حيث يلاحظ دهامشة أن مركّبَي "أبو" و"أم" يشكِّلان حضوراً لافتاً في تسمية الأماكن العربية، في مقابل غيابهما شبه التام كمكوِّنين جندريين في الأسماء العبرية المقابلة. كما يتتبَّع كيف يتم الربط بين أعضاء جسد الإنسان وتضاريس المكان لخلق تماثل بين الكائن الحيّ والجماد، وكيف يتم ربط خصوبة الأرض واستصلاحها، على نحو متكرر، بصورة المرأة والأنوثة. إن هذا التحليل، الذي يستدعي أدوات من دراسات الحيِّز والجندر أكثر مما يستدعي أدوات اللسانيات التقليدية، يقود الكاتب إلى استنتاج لافت مفاده أن طغيان الحضور النسائي الواضح في أسماء المعالم الطبيعية (الينابيع، المغاور، الأودية)، يقابله طغيان المنطق البطريركي على أسماء البلدات التي تنحصر في أسماء القادة والمقاتلين والآباء المؤسسين.

وفي هذا السياق، فإن التحليل الإثنوغرافي لأسماء البلدات، يوضح أهمية صلاح الدين الأيوبي في التفسير الشعبي

للأسماء باعتباره رمزاً في الذاكرة الجمعية لانتصار تاريخي مهم. وهو ما يفسر الإسكات المتعمَّد للوجود الفرنجي والصليبي عن المشهد اللغوي الفلسطيني، الذي يروي عبر خارطة الأسماء الموروث العسكري الإسلامي ويسقط عمداً الحضور الفرنجي. وبذلك، تصبح حدود حيِّز القرية الصغير امتداداً مباشراً للوطن الإسلامي الأكبر في الوعي الشعبي. ومن اللافت أن الكتاب يظهر باستمرار التمييز المهم بين العام والخاص، حيث إن الأسماء قد تحمل ذاكرة عربية أو إسلامية واسعة، لكن في الوقت نفسه تحمل تاريخاً اجتماعياً وفولكلوراً محلياً خاصاً.

يستند الكتاب في تأطيره النظري بشكل خاص على تأويلات دراسات الحيِّز (لوفيفر ودو سارتو)، حيث يشتبك مع تنظير لوفيفر بشكل أساسي حول إعادة إنتاج علاقات القوى للحيِّز وإدراكه. ومن هنا، ينتقل الكتاب إلى تحليل إعادة تسمية الأماكن (88) بوصفها ممارسة تكشف عن مسارات تاريخية وسياسية غير متجانسة بين مجموعات غير متكافئة. وفي هذا الصدد، يشدِّد الكتاب على أن الاستعارة اللغوية ذاتها والمتمثِّلة في اختيار الصورة البلاغية التي يُبنى بها الاسم، هي عبارة عن عملية متأثرة ببنية القوى السياسية القائمة وقت التسمية.

خاتمة

يشكِّل الكتاب مساهمة أصيلة ونوعية منهجياً ونظرياً، وذلك من خلال اعتماد مقاربة عابرة للتخصصات تدمج بين اللغة والتاريخ الاجتماعي ودراسات الحيِّز والجندر. وهو بذلك يعمل على مساءلة ونقد مشروع المحو الاستيطاني الصهيوني المتمثِّل في عبرنة الأسماء واعتماد خطاب استشراقي وضعي. ومن جهة أخرى، يقدِّم الكتاب بحثاً عميقاً في التجربة الفلسطينية المعيشة عبر الزمان والمكان. وعلى الرغم من أن الحقل الميداني للدراسة ينحصر في الجليل الغربي، فإن قيمة الكتاب تكمن فعلاً في أنه يفتح إمكاناً بحثياً يتجاوز حدوده الجغرافية المباشرة. فتتيح مقاربته النظرية والمنهجية، ولا سيَّما التمييز بين أسماء البلدات والمعالم الطبيعية، والربط بين التسمية والذاكرة والحيِّز، والانتباه إلى أبعادها الجندرية والاجتماعية والطبقية، طرحَ أسئلة جديدة حول أسماء الأمكنة في سياقات فلسطينية أخرى، من الساحل والمثلث والنقب إلى الضفة الغربية وقطاع غزة. ولا يعني ذلك افتراض تطابق التجارب، بل اختبار الكيفية التي تتغيَّر بها علاقة الاسم بالمكان باختلاف التاريخ المحلي والعمل والحركة والاستيطان. يمكن أن تكشف قراءة الأسماء من الأسفل عن خرائط اجتماعية لا تظهر في الخرائط الرسمية: أسماء تحفظ آثار الزراعة والرعي والمياه ومسارات الحركة، وأسماء تختزن قصص العائلات والجماعات والحوادث. والكتاب بذلك، يقدِّم أداة منهجية لقراءة العلاقة بين الناس والحيز والذاكرة والسلطة، بما يتيح بناء معرفة من أسفل تتمركز حول تجارب الفئات المهمَّشة وأصوات السكان الأصلانيين في مقاومة محاولات إسكاتهم ومحو سرديتهم من قبل أجهزة الدولة الاستعمارية